وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد الشريف مساعدية سوق أهراس – الجزائر–

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

المؤتمر الدولي الافتراضي الموسوم بـ:

التراث الأدبي العربي في محاضن العقلانية

يوم 11 نوفمبر 2023م

الاسم واللّقب: مريم زنور

الرتبة: أستاذ محاضر ب

جامعة الانتساب: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية– قسنطينة–

كلية الآداب والحضارة الإسلامية

قسم اللغة العربية

البريد الالكتروني: marianour1985.43@gmail.com

رقم الهاتف: 0667075011

عنوان المداخلة: معايير التّجنيس في الخطاب النّقديّ العربيّ بين الجماليّة والعقلانيّة - كتاب البرهان في وجوه البيان لابن وهب الكاتب

-

Standards of naturalization in the Arab critical discourse between aestheticism and rationalism - the book Al-Burhan fi Wujooh Al-Bayan by Ibn Wahb –Al-Katib

ملخص: لم يكن الناقد العربي مشغولا بتصنيف أشكال الخطاب والممارسات الإبداعية، غير أنّه كان على وعي بالمغايرة والاختلاف بينها، فللشعر خصائص وقوانين تحكمه، وللنثر مثل ذلك، فمن النقاد العرب من حاول إعطاء تصور شامل لأشكال الخطاب الإبداعي العربي ويأتي في مقدمة هؤلاء ابن وهب الكاتب (ت 335هـ) في كتابه البرهان في وجوه البيان والذي أقامه وفق معايير علمية وعقلانية سعى من خلالها إلى الإحاطة بمختلف الأجناس الأدبية العربية.

الكلمات المفتاحية: تجنيس؛ ابن وهب؛ عقلانية؛ جمالية؛ معيار.

Abstract : The Arab critic was not busy with classifying forms of discourse and creative practices, however, he was aware of the contrast and difference between them. Poetry has characteristics and laws that govern it and so does prose. there were Arab critics who tried to give a comprehensive vision of the forms of Arab creative discourse and at the forefront of the Arab critics comes: Ibn Wahb Al katib (D 335 AH) in his book (Alborhan fi Woujouh Albayan) which he established according to scientific and rational standards through which he sought to encompass the various Arabic literary genres.

Keywords: naturalization- Rationality- Aesthetic-Alborhan Fi Wojouh Albayan- standard

1. مقدمة:

عرف متصور **"الجنس الأدبي"** أهمية بالغة في تصنيف أشكال الممارسة الإبداعية ووصف ظواهرها وتفسيرها، فمنذ كتابي **فن الشعر** و**الخطابة** لأرسطو طاليس طرح سؤال الجنس الأدبي باعتباره متصلا بماهية الأدب والممارسات الجمالية ووسيلة لضبط خصائصها ومقوماتها، وعلى الرغم من الأهمية الكبيرة التي حظي بها هذا المتصور إلاّ أن أغلب الباحثين يقرّون بوجود تباين واختلاف واسع في درجة الاهتمام به على مدار العصور، مما جعل إمكانية تعريفه وضبط حدوده وتحديد مقوماته تثير العديد من الأسئلة والإشكالات.

ولعل الباحث في هذا السياق يلحظ غياب تصور واضح لمسألة تجنيس الأدب وضبط خصائصه ومعاييره في المدونة النقدية العربية، فعلى الرغم من إدراك الناقد العربي ووعيه بمكامن الاختلاف والمغايرة بين أشكال الخطاب إلاّ أنّه لم يشغل نفسه بوضع تصنيف واضح لها وفق معايير وقواعد واضحة، غير أنّ ذلك لا يعني بشكل من الأشكال خلو النقد العربي القديم من بعض التصنيفات التي كانت ثنائية المنظوم والمنثور لبنتها الأولى لتفضي إلى تقسيمات أخرى لم تتسع لتشمل التجربة الإبداعية العربية بكافة تمثلاتها الجمالية لكنها كانت بمثابة "نظرية فنون أدبيّة، أو بالأحرى « نظرية بلاغة جامعة » تعتمد في تصنيفها على أجناس الكلام وطبقاته، ومراتبه من اللغة العليا حتى لكأنّه – مثل الفكر الذي

أنتجه والثقافة التي ولّدته – يترفع عن الجزئيات والتفاصيل ويرنو إلى المطلق والشّامل"[1].

ويعد كتاب **البرهان في وجوه البيان لابن وهب الكاتب** واحدا من أهم المصادر التراثية التي عرضت مسألة تصنيف أشكال الخطاب، ولعل السبب الذي جعلنا نختار هذا الكتاب رجع إلى جملة من العوامل والأسباب بعضها متصل بالوضع هذا الكتاب الذي ظلّ لعصور طويلة مغموراً حاملاً لغير عنوانه منسوباً لغير صاحبه، وبعضها الآخر متصل بمنهجه في البحث وطريقته في عرض المادة النقدية، ومن الأسباب أيضا ما هو موصول بمرجعيات الناقد وخلفياته الفكرية والعقلية التي انعكست بدورها على نظرته للممارسة الإبداعية وتصنيفها، ومن ثم تحاول هذه الورقة البحث الخوض في فكر ابن وهب الكاتب للإجابة عن جملة من الأسئلة والإشكالات أهمها: كيف صنّف ابن وهب أجناس الكلام العربي؟ وما هي المعايير التي اعتمدها في تصنيفه؟ وما طبيعة هذه المعايير؟ وهل كان للعقلانية دور في توجيه هذا التصنيف وضبط مقوماته ومعاييره؟ وأي أجناس الكلام عكس الفكر المنطقي والبعد العقلاني حسب تصوّر ابن وهب؟

وللإجابة عن هذه الإشكالات وغيرها اعتمدنا على المنهج الوصفي التحليلي إضافة إلى تكريس بعض آليات نقد النقد في قراءة النصوص النقدية المختلفة وتأويلها.

2. العقل والعقلانية: خلفيات تراثية:

[1] عبد العزيز شبيل: نظرية الأجناس الأدبيّة في التراث النثري العربي –جدلية الحضور والغياب-، دار محمد علي الحامي، صفاقس، تونس، ط1، 2001م، ص 485.

إنّ البحث في أصول النزعة العقلانية في التراث يفتح الباب على مصرعيه للكثير من أمهات الكتب على اختلاف موضوعاتها وتوجهاتها الفكرية ومرجعياتها الفلسفية، ولئن كان مصطلح "العقلانية" غائبا بلفظه في تلك المؤلفات في عمومها إلاّ أنّ مصطلح العقل وغيره من المصطلحات المرتبطة به دلاليا لها حضورها الواضح في التراث العربي، ففي القرآن الكريم العديد من الآيات التي جاء فيها لفظ العقل صراحة نحو قوله **تبارك وتعالى**:

«أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا **عَقَلُوهُ** وَهُمْ يَعْلَمُونَ» (البقرة 75)، وفي الشعر العربي وردت بمعناها نحو قول **زهير بن أبي سلمى**:

لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده فلم يبق إلاّ صورة اللحم والدم[2]

كما يحفل النثر العربي القديم بإشارات كثيرة إلى قيمة العقل، فقد كان خطاب العقل أحد أبرز مباحثه وموضوعاته، ومن النصوص الشهيرة التي ترجع إليه في هذا السياق قوله (ابن المقفع):

"وأفضل ما رزقهم الله تعالى ومنّ به عليهم العقل الذي هو الدّعامة لجميع الأشياء . والذي لا يقدر أحدٌ في الدنيا على إصلاح معاشه ولا إحراز نفع ولا دفع ضرر إلاّ به. وكذلك طالب الآخرة المجتهد في العمل المنجي به روحه، لا يقدر على إتمام عمله وإكماله إلاّ بالعقل الذي هو سبب كلّ خير ومفتاح كلّ سعادة"[3] .

وقد كان للطفرة الفكرية والحضارية التي عرفها المجتمع العربي مطلع العصر العباسي الدور الهام في بلورة هذه المفاهيم وتطويرها، لاسيما بعد حركة المثاقفة

[2] زهير بن أبي سلمى: الديوان، شرح علي حسن عافور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1988م، ص 112.
[3] ابن المقفع: كليلة ودمنة، دار المعارف، بيروت، ط1، 1931، ص 29.

التي التي تعرّف من خلالها العلماء العرب على محصلة المعارف والعلوم التي وصلت إليها مختلف الشعوب الأجنبية المنضوية تحت راية الإسلام والتي يأتي المنطق والفلسفة الأرسطية في مقدمتها، فشهدت الساحة الفكرية ظهور عدد كبير من الكتب والمؤلفات التي كان العقل أحد أبرز موضوعاتها، وقد تنوعت تلك المؤلفات بين الدينية واللغوية والتاريخية وحتى النقدية والأدبية، ويعد كتاب البرهان في وجوه البيان واحد من تلك المؤلفات التي احتفى فيها صاحبها بفكرة العقل والتي بدت فيها النزعة العقلية واضحة، ونظراً لاهتمامنا في هذه الورقة البحثية بمسألة تجنيس الكلام العربي وضبط معاييرها ومقوماتها وبيان أثر النزعة العقلانية فيها، فقد كان لزاما علينا أن نقف أولا عند تصنيف ابن وهب لتلك الأجناس.

3. أجناس الكلام العربي في كتاب البرهان:

استهل صاحب **البرهان** كتابه بفضل العقل الذي خصّ به الانسان دون غيره، فكان حجة الله على خلقه، ودليلهم إلى معرفته، وسبيلهم إلى نيل رحمته، فلم يخاطب الله إلاّ من صحّ عقله، واعتدل تمييزه[4]، ومن ثم لم يآخذ الله فاقد العقل بالجنون أو صغر السن وأسقط عنه التّكليف، لأنّ العقل به يدرك الإنسان ما غاب عنه، ويميز به الخير من الشر، وبذلك كان لله على البشر حجتان: حجة ظاهرة هي الرسل، وحجة باطنة هي العقل، والعقل ينقسم بدوره إلى قسمين: **موهوب ومكسوب**، أما الموهوب فهو ما جعله الله في جبلة الإنسان أي فطرته، والمكسوب هو ما حصله الإنسان بالتجربة والعبر والأدب والنظر

[4] ينظر اسحاق ابن وهب: البرهان في وجوه البيان، تح أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ط1، 1967م، ص ص 54-55.

والتّدبّر، وبالعقل **يبين** الإنسان، فهو إذا تفكّر وتدبّر، ونظر واعتبر، **تبيّن** له ما يريد أن **يتبيّنه**، وظهر له معناه وحقيقته[5].

والبيان عند **ابن وهب** على أربعة وجوه: الاعتبار والاعتقاد والعبارة والكتاب؛ ولعل **البيان الثالث** (العبارة) هو ما يهمنا في هذه الورقة البحثية فإليه ترجع مجمل أجناس الكلام وأصنافه، باعتباره البيان بالقول (...) وهو يختلف باختلاف اللّغات، وإن كانت الأشياء المبين عنها غير مختلفة في ذواتها"[6]، وبيان بالعبارة بحكم ارتباطه باللغة فإنّ خصوصياته تختلف من لغة إلى أخرى، وإن اتفق في بعض المقومات العامة وقد أشار ابن وهب إلى ذلك ذاكرا ما اتفقت فيه العبارة العربية مع غيرها، وما تفردت به، وعموما فقد جعل ابن وهب البيان بالعبارة في بابين سنحاول إيجاز ما جاء فيهما فيما يأتي:

الباب الأوّل: وهو بمثابة القواعد العامة، "ومنها ما هو عام للسان العرب وغيرهم ومنها ما هو خاص له دون غيره، ويجمع ذلك في الأصل: الخبر والطلب (...) فأما العرب فلهم استعمالات أخر من الاشتقاق والتشبيه، واللحن، والرمز، والوحي، والاستعارة، والأمثال، واللغز، والحذف، والصرف، والمبالغة، والقطع، والعطف، والتقديم، والتأخير، والاختراع"[7]. وقد وقف عند كل عنصر من هذه العناصر بالشرح والتمثيل.

الباب الثاني: واسماه **باب تأليف العبارة**، والمراد بها الجنس الأدبي الذي تصاغ فيه العبارة، باعتبار الجنس الأدبي، جملة من الخصائص والسمات البنيوية والتكوينية التي تتوفر في النص فتصنف وفق ذلك في واحد من الأجناس

---

[5] ينظر المصدر نفسه، ص 59.

[6] إسحاق ابن وهب: البرهان، ص 111.

[7] المصدر نفسه، ص ص 112-122.

الأدبية المعروفة، وقد جمع ابن وهب تلك الأجناس **في قوله:** "اعلم أنّ سائر العبارة في لسان العرب، إمّا أن يكون منظومًا أو يكون منثورًا، والمنظوم هو الشّعر، والمنثور هو الكلام، **فالشعر** ينقسم أقساماً منها: القصيد (...) والرجز(...) ومنها: المسمّط (...) ومنها المزدوج (...). أمّا **المنثور** فليس يخلو أن يكون خطابةً أو ترسّلاً أو احتجاجًا أو حديثاً، ولكلّ واحد من هذه الوجوه موضع يستعمل فيه"[8].

انطلق ابن وهب في تقسيم أجناس تأليف العبارة من ثنائية المنظوم والمنثور فجعلها اللبنة الأساسية التي تتولد منها سائر الأقسام الأخر، فجعل من الشعر (القصيد والرجز والمسمط والمزدوج) وجعل من النثر (الخطبة والرسالة والاحتجاج والحديث) كما يوضحه المخطط الآتي:

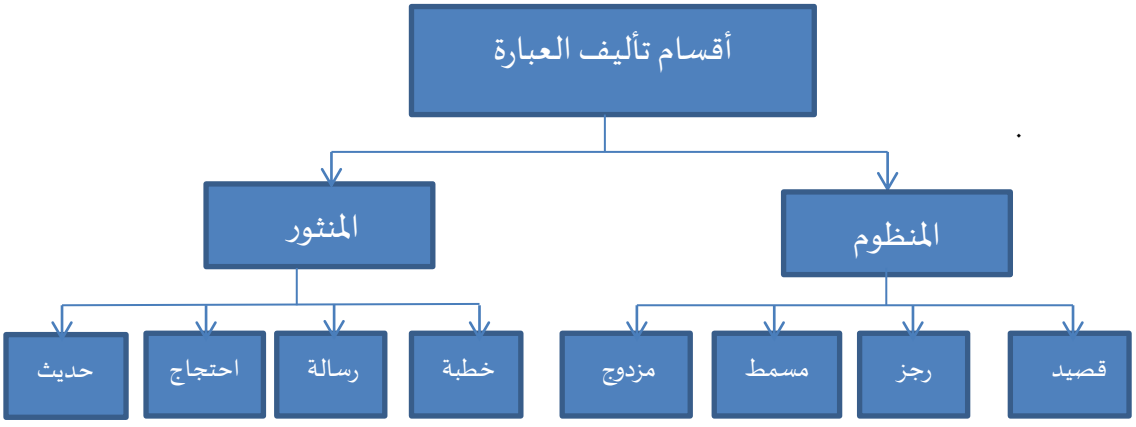

4. معايير التجنيس عند ابن وهب و أثر العقلانية فيها:

[8] إسحاق ابن وهب: البرهان، ص ص 160- 191.

إنّ التصنيف الذي قدّمه **ابن وهب** في كتابه **البرهان في وجوه البيان** يعدّ من أكثر التصنيفات التي قدّمت للكلام العربي شمولية واتساعا وذلك إذا ما قورن بما سبقه من تصنيفات جاءت في الواقع عرضية في سياق مباحث علمية ومعرفية مختلفة فلم تكن مقصودة في ذاتها وإنما خدمة لتلك المباحث، إلاّ أنّ تصنيف ابن وهب استهدف الظاهرة الإبداعية في حدّ ذاتها باعتبارها وجها من وجوه **البيان** الذي عدّه "خاصة مميزة للإنسان وجعل **العقل** المؤسس لهذا البيان موهوبا ومكسوبا. إنّ الأساس الايبستيمولوجي للنّظرية البيانية في المعرفة هو هذا النوع من التصور للعقل : تصور العقل على أنّه غريزة في الإنسان لا تؤدي وظيفتها، بل لا يكتمل وجودها، إلاّ بما يكتسبه الإنسان من معارف إما بواسطة الخبر وإما بواسطة النظر. والنظر ليس نظر العقل في مبادئه، فهو مجرد غريزة خال من كلّ محتوى سابق، بل نظر العقل في «الدليل» والدليل يقع خارج العقل وليس داخله، إنّه أشياء العالم بوصفها علامات أو أمارات شاهدة على مدلولات غائبة"[9].

وبذلك يكون **ابن وهب** قد جعل تصنيفه لأجناس الكلام العربي قائما على ثنائية **البيان والعقل** باعتبارها "مقومان للإنسان، متكاملان ومتداخلان، ومن هنا ستكون «وجوه البيان» هي نفسها تجليات العقل ومظاهر نشاطه"[10].

فعلى مستوى **الخطاب الشعري** برز **الإيقاع** معيارا واضح في تصنيف ابن وهب، فالقصيد والرجز والمسمط والمزدوج أشكال شعرية تختلف من حيث بنيتها الإيقاعية بالدرجة الأولى، وهو تقسيم يجمع بين البنية الإيقاعية التقليدية

[9] محمد عابد الجابري: بنية العقل العربي – دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية- (نقد العقل العربي 2)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط9، 2009م، ص 38.

[10] المرجع نفسه، ص 34.

(القصيد والرجز) وبعض البنى الإيقاعية المستحدثة (المسمط والمزدوج)، والإيقاع من **المعايير الجمالية** التي حكمت العبارة الشعرية وأخضعتها لجملة من الاختيارات اللغوية والأسلوبية التي تراعي هذا المعيار بالدرجة الأولى، وإلى جانب الإيقاع أشار ابن وهب في موضع آخر لتصنيف الشعرية العربية وفق معيار الغرض الشعري، والذي يعدّ أكثر التصنيفات التي خضعت لها الشعرية العربية شهرة وتداولا، فلشّعراء فنون من الشّعر كثيرةٌ تجمعها في الأصل أصناف أربعة وهي :المديح، والهجاء، والحكمة، واللّهو ومن هذه الأصول الأربعة ومنها تتفرع أغراض الشّعرية أخرى ، فالمراثي والافتخار والشّكر فروع من المديح، والذم والعتب والاستبطاء والتأنيب فروع من الهجاء، بينما يتفرع من الحكمة الأمثال والتزهيد، والمواعظ، ومن اللّهو الغزل والطرد وصفة الخمر والمجون.

وهو تصنيف قائم على مبدأ الأصل والفرع في ترتيب أغراضية الشعر العربي، ومعيار **الغرض** يعد إلى جانب الإيقاع من المقومات الجمالية الشعرية العربية، ولئن كانت أغلب الآراء النقدية التي حاولت تحديد مفهوم الغرض في الشعر العربي قد مالت نحو ربطه بالموضوع الشعري وقصرته عليه، إلاّ المتأمل في تاريخية هذا المصطلح (الغرض) وانعكاسه في النصوص الشعرية، يشي بأنّه يتجاوز الموضوع الشعري ليصبح "مكونا من مكونات الشّعر العربي الذي يفسّر كثيرا من الظواهر اللّغوية والأسلوبية التي لجأ إليها الشعراء"[11]، إنّه جملة من الخيارات الموضوعية واللغوية والأسلوبية التي تصنع فرادة النص وتجعل الشاعر يتجدد فلا يكرر ذاته حتى ولو كتب في الموضوع الواحد مرات عديدة.

[11] محمد مشبال :البلاغة ومقولة الجنس الأدبي، مجلة عالم المعرفة، العدد 01 ، المجلد 30 ، يوليو 2001 م، ص80 .

أما على مستوى **الخطاب النثري** الذي جعله ابن وهب محصورا في أجناس أربعة هي: الخطبة والرسالة والاحتجاج والحديث وهو ترتيب مقصود يعكس جملة من المعايير التي تعكس رأيته لواقع هذه التجربة.

أما أذا أردنا التعمق في بنية التصنيف في حدّ ذاته فإننا نجده قائما على جملة من المعايير أوّلها **الموضوع:**

اتخذ ابن وهب من الموضوع أوّل معيار للتصنيف الأجناس الأدبية النثرية وترتيبها مستعملا في ذلك مصطلح **الموضع** حين قال: "أمّا المنثور فليس يخلو أن يكون خطابةً أو ترسّلاً أو احتجاجًا أو حديثاً، ولكلّ واحد من هذه الوجوه **موضع** يستعمل فيه"[12]. فجعل الخطابة تتقدم أجناس المنثور لانشغالها بأمور الدين، تليها الرسالة التي تتخذ من أمور الدولة والسياسة موضوعها وتتوالى الأجناس النثرية وفق هذا التصور منتهية بالحديث الذي الجنس الذي هو لغة العامة التي تخوض في الجاد والهزلي من القضايا والموضوعات.

فحسب طبيعة الموضوع وأهميته رتّب ابن وهب أجناس منثور الكلام، ولما كانت **الخطابة والكتابة** (...) مختصّتان بأمر **الدين والسلطان**، وعليهما مدار الدّار، (...)أمّا **الكتابة** فعليها مدار السلطان. و**الخطابة** لها الحظّ الأوفر من أمر الدّين؛ لأنّ الخطبة شطر الصلاة التى هي عماد الدّين في الأعياد والجمعات والجماعات، وتشتمل على ذكر المواعظ التي يجب أن يتعهّد بها الإمام رعيّته لئلّا تدرس من قلوبهم آثار ما أنزل الله عزّ وجلّ من ذلك في كتابه، إلى غير ذلك من منافع الخطب"[13]، وقد فصّل **ابن وهب في أنواع الخطب** حسب موضوعاها ومناسبتها

[12] إسحاق ابن وهب: البرهان، ص ص 160- 191.

[13] أبو هلال العسكري: الصناعتين-الكتابة والشعر-، تح محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1953م ، ص 136.

بين ما يستعمل في إصلاح ذات البين وإطفاء نار الحرب، وحمالة الدماء والتسديد للملك، والتأكيد للعهد، وفي عقد الأملاك، وفي الدعاء إلى الله عزّ وجلّ، وفي الإشادة بالمناقب، ولكلّ ما أريد نشره وشهرته في الناس[14]، وبذلك انحصرت موضوعتها في عظيم الأمور والقضايا من شؤون الدولة والرعية السياسية والاجتماعية والدينية.

وقد تلت **الرسالة** الخطبة في تصنيف **ابن وهب** للتقارب الشديد الحاصل بينهما من حيث القضايا والموضوعات، يقول في تحديد موضوعاتها:

"التّرسل في نوع من هذا، وفي الاحتجاج على من زاغ من أهل الأطراف، وفي ذكر الفتوح، وفي الاعتذارات والمعاتبات وغير ذلك مما يجري في الرسائل والمكاتبات"[15]، وهذه الموضوعات في عمومها تأتي في المرتبة الثانية بعد ما اختصت به الخطابة، لتليها قضايا الاحتجاج والجدل الذي "يقصد به إقامة الحجة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين، ويُستعمل في المذاهب والديانات وفي الحقوق والخصومات، والتنصل في الاعتذارات"[16].

ليتذيل الحديث تصنيف **ابن وهب** نظرا لاختصاصه بكلام العامة "فهو ما يجري من الناس في مخاطباتهم ومجالسهم ومناقلاتهم وله وجوه كثيرة: فمنها الجد والهزل، السخيف والجزل، والحسن والقبيح، والملحون والفصيح، والخطأ والصواب، والصدق والكذب، والنافع والضار، والحق والباطل، والناقص والتام، والمردود والمقبول، والمهم والفضول، والبليغ والعيي"[17]، ولئن كان الحديث

[14] إسحاق بن وهب: البرهان، ص 191.

[15] المصدر نفسه، ص 191.

[16] المصدر نفسه، ص 222.

[17] المصدر نفسه، ص 246.

مختصا بعامة الناس إلاّ أنّ ابن وهب قد جعله عموما على مذهبين اثنين: الجد والهزل، أما النوع الأوّل وهو ما يشمل سائر النعوت الأخرى من الصدق والنفع والحق والتمام والقبول ... ويدخل فيه كلام العقلاء والحكماء وما شابههم من أصحاب الرأي والمشورة، ونوع ثان وهو الحديث الهزلي الذي يتصف بنقيض ما اتصف به النوع الأول من السخف والقبح واللحن والخطأ والكذب والضرر والباطل، ... وفيه يدخل حديث السخفاء والسفهاء وأراذل الناس من غيبة ونميمة وسفساف الأمور ومحاقرها، والحديث حسب ابن وهب يجب أن يخضع لميزان العقل ويحتكم إليه فيعرض مواضع الكلام ومواضع الصمت ومتى يحسن كل منهما[18].

وهو ما يجعلنا نخلص إلى أنّ تصنيف **ابن وهب** قام على معيار الموضوع وفق ترتيب عقلي منطقي من الخاص إلى العام، ومن الهام إلى المهم إلى المتوسط إلى ما دون ذلك، وهو ما ترتب عليه مراعاة معايير أخرى يستدعيها **الموضوع** ذاته وتتمثل خاصة في معياري **المقام** وطبيعة **المتلقي** وطبقته الاجتماعية، فالخطبة باعتبارها جنسا أدبيا شفهيا تقتضي عناية خاصة باللغة وسلامة آلة البيان من العيوب التي يمكن أن تعتريها فتشين لغة الخطيب وتحول بينه وبين متلقيه، فاختلال الآلة الذي يمكن أن يقع فيه المتكلّم عامّة والخطيب خاصّة من الأمور التي يمكن أن تكون حاجزا بينه وبين تحقيق التفوّق، ناهيك عن الحرج التواصلي الذي يقع فيه مختل الآلة كالألثغ والفأفاء ومن شابههما[19]، نظرا للمواجهة الحاصلة بين الخطيب والمتلقي الحاضر تجعله (الخطيب) واقعا تحت إكراهات

[18] ينظر ابن وهب: البرهان، ص 305.

[19] ينظر نور الهدى باديس: بلاغة المنطوق وبلاغة المكتوب – دراسة في تحوّل الخطاب البلاغي من القرن الثالث هـ إلى القرن الخامس هـ، مركز النشر الجامعي، تونس، ط1، 2005م، ص 161.

المقام فـ"الناس جميعا يرمقونه ويتصفحون وجهه، كان الخطأ فيها غير مأمون والحصر عند المقام بها مخوفا محذورا"[20]، بينما يكون المترسل في فسحة تتيح له فرصة التأني وإعادة النظر فيما يكتبه ويعمل فيه الفكر نظرا لبعد متلقيه فهو معفى من إكراهات المقام التي يقع فيها الخطيب، لذلك كان المترسّل مكروها بل ومرفوضا إذ لا حجة له في حال وقع في الزلل أو الخطأ وتّأكيدا لذلك يقول ابن وهب:

"ليس العجب من رجل تكلّم بين قوم فأخطأ في كلامه أو قصّر في حجته،(...) ولكن العجب ممن أخذ دواة وقرطاسا وخلا بفكره وعقله، كيف يعزُبُ عنه باب من أبواب الكلام يريده أو وجه من وجوه المطالب يؤمّه"[21].

إضافة إلى ذلك كان **لابن وهب** تصور آخر للمقام والمتلقي في تصنيف أشكال الخطاب، والذي يتمثل في نوعية المتلقي وطبقته، والتي ارتبطت بالموضوع في حد ذاته، فجليل الأمور وعظيمها إنما يتلقاها الخاصة من الناس كالعلماء والخلفاء ومن له شأن في المجتمع وهو المقام الذي تستهدفه الخطابة، يليه مقام التّرسل الذي يجمع بين الخاص والعام إلاّ أنّه يختص بالقضايا الجادة، ولا ينزل إلى سائر المقامات الأخرى التي تختص بها الأجناس الأدبية التالية له في التصنيف على غرار الاحتجاج والحديث.

وعموما فقد كانت النزعة العقلانية واضحة بجلاء في ضبط معايير تجنيس الخطاب النثري العربي في كتاب البرهان في وجوه البيان، ولعل ذلك راجع إلى ابن وهب أراد أن ينظم التراث البياني السابق ويعيد ترتيبه في ضوء منهجية دقيقة وفيما استقر عليه التفكير الإنساني حتى زمنه، فقد كان بحكم تكوينه مطلعا على

[20] إسحاق بن وهب : البرهان، ص 191.

[21] المصدر نفسه، ص 192.

مطلعا على المنطق وعلم الكلام، مُلماً بأطراف الفلسفة اليونانية ومصطلحاتها ومدلولاتها، يتقن مناهج المتكلّمين وأساليب الفقهاء، وهو ما جعله يوظّف هذه الحصيلة الثقافية الواسعة في قراءة البيان العربي، والمميز أنه لم يكن يقحمها ولا يشرع بها ولا يطبقها وإنما يستأنس بها في الفهم والتفهيم[22]، وهو ما انعكس على كل ما قدّمه من جهود في تصنيف أشكال الخطاب والممارسة الإبداعية العربية لاسيما النثرية منها، إضافة إلى ثقافته العربية وذوقه الجمالي الذي ظهر بجلاء في تصنيف أشكال الخطاب الشعري.

خاتمة: ونخلص من مداخلتنا هذه إلى جملة من النتائج بجملها فيما يأتي:

- لم يعط الناقد العربي القديم اهتماما كبيرا لتجنيس الكلام وضبط مقوماته إلاّ ما جاء عرضا في سياق مباحث نقدية وبلاغية وإعجازية.
- يعدّ كتاب البرهان في وجوه البيان واحدا من المصادر التي تعرّضت لمسألة تصنيف الأجناس الأدبية الشعرية والنثرية وفق معايير ومقومات خاصة.
- خضع الشعر العربي في تصنيف ابن وهب إلى معايير جمالية بالدرجة الأولى مردها إلى جملة من السمات الإيقاعية واللغوية والموضوعية وحتى الأسلوبية التي ضبطت اختيارات الشاعر العربي ووجهت ذوقه.
- كانت المعايير التي أقام عليها ابن وهب تصنيفه لأشكال الخطاب النثري العربي قائمة على أبعاد عقلانية ومنطقية تعكس ثقافته واطلاعه الواسع على العلوم الدقيقة والفلسفة والمنطق ومذاهب المتكلمين وطرقهم في الجدل والاحتجاج.

قائمة المصادر والمراجع:

[22] ينظر عباس أرحيلة: الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين (إلى القرن الثامن ه)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الدار البيضاء، ط1، 1999م، ص 417.

1. ابن المقفع: كليلة ودمنة، دار المعارف، بيروت، ط1، 1931.
2. أبو هلال العسكري: الصناعتين-الكتابة والشعر-، تح محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1953م .
3. إسحاق ابن وهب: البرهان في وجوه البيان، تح أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ط1، 1967م.
4. زهير بن أبي سلمى: الديوان، شرح علي حسن عافور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1988م.
5. عباس أرحيلة: الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين (إلى القرن الثامن ه)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الدار البيضاء، ط1، 1999م.
6. عبد العزيز شبيل: نظرية الأجناس الأدبيّة في التراث النثري العربي –جدلية الحضور والغياب-، دار محمد علي الحامي، صفاقس، تونس، ط1، 2001م.
7. محمد عابد الجابري: بنية العقل العربي – دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية- (نقد العقل العربي 2)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط9، 2009م.
8. محمد مشبال :البلاغة ومقولة الجنس الأدبي، مجلة عالم المعرفة، العدد 01، المجلد 30 ، يوليو 2001 م.
9. نور الهدى باديس: بلاغة المنطوق وبلاغة المكتوب – دراسة في تحوّل الخطاب البلاغي من القرن الثالث ه إلى القرن الخامس ه، مركز النشر الجامعي، تونس، ط1، 2005م.